﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 139 - 144]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من عـذابِ اللهِ إلـــى رحـمـتـه وشـهـادة قصَّة يونس على تغيُّر الأحـــوال وتوبة القوم

لَمّا أكملَ الحقُّ سبحانه ما كان من قصص الأمم السّابقة التي هلكت بما كان مِنها مِن كفرٍ وعصيانٍ؛ ختم سلسلةَ القصصِ بقصَّةٍ تدلُّ على رحمة اللّه وفضله في هدايته تعالى قومَ يونس وتوبتهم، وبما أسبغَ عليهم مِن نِعَمِهِ، وأحسن إليهم بتغليب الأمل والرَّجاءِ في نفوس المؤمنين، وطمأنةِ قلوبهم بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يغفرَ الذُّنوب، وأن يهديَ الضّالّين؛ لتكونَ قصَّة يونس عِبرةً لمن يعتبر، مؤكِّدًا على أنَّه كان مِن الأنبياء، وإزالة الشَّكِّ الَّذي قد يراود بعض النّاس حول قصَّة يونس عليه السلام[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَقَ﴾: فعل ماضٍ، جذره اللُّغويُّ (أبق)، والإباقُ أن يذهب العبدُ من غير خوف، وأن يخرجَ من غير كدٍّ عملٍ، ومن معانيه الهروبُ، هروبُ العبدِ من سيِّده ومولاه، والهمزةُ والباء والقاف بمعنى الإباقِ، وبمعنى التَّشدُّد في الأمر، وتأبُّقُ العبد استتارُهُ واختفاؤه، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ من معانٍ، و"الاستخفاء يكون بالدُّخول في حيّز ما يستره، أي: الاحتباس فيه، وتأبَّق: استتر، واحتبس[2]، ومعنى ﴿أَبَقَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: إخبارٌ عن نبيِّ اللّه يونس عليه السلام الَّذي هرب إلى السَّفينة[3]، ثمّ ما كان من شأن إلقائه في البحر، والقصَّة معروفة.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أبق).
(3) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 75.

2) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: اسم مجرَّد يقع على المفرد وغيره، والجذر اللُّغويُّ منه (فلك)، ومعناه السَّفينة، ويجوز أن يكون جمعًا بمعنى السُّفن، ويجوز فيه التَّذكير، ويجوز فيه التَّأنيث، كأنَّ التَّذكير إشارةٌ إلى المركب، والتَّأنيث إشارةٌ إلى السَّفينة، والفاء واللّام والكاف أصلٌ في كلام العربِ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، والسَّفينة تدارُ في الماء، ومن معاني ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: موجُ البحرِ وهياجه واضطرابه، ولمّا كان الفلكُ بمعنى الاستدارةِ، وهي العودُ بعد الذَّهاب؛ فإنَّ تسميةَ السَّفينة بالفلك من هذا المعنى؛ لأنَّها تعود بعد ما تذهب في البحر[1]، ومعنى ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ في الآية: السَّفينة المجهَّزة[2].

3) ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: اسم مفعولٍ من الفعل (شَحَنَ)، جذره اللُّغويُّ (شحن)، والشَّحنُ بمعنى الامتلاء، يقال: شحنت السَّفينة، أي: ملأتها، وأتممتُ جهازها، وشحنتُ البيتَ ملأتُهُ، وللشّين والحاء والنّون أصلٌ يدلُّ على الامتلاء، ومنه الشَّحناء المرادفة للبغضاء، ومعناها "عداوةٌ امتلأت منها النَّفس، يقال: عدوٌّ مُشاحن، وأشحن للبكاء: امتلأت نفسُه لتهيُّئه له"[3]، ومعنى ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ في الآية موضع التَّفسيرِ: السَّفينة الَّتي مُلِئَت بالنّاس والحيوان والأثاث والمتاع ونحوه[4].

4) ﴿فَسَاهَمَ﴾: فعل ماضٍ دالٌّ على المفاعلة، زنة (فاعَل)، الجذر اللُّغويُّ منه (سهم)، ومنه الاستهامُ والمساهمة بمعنى الاقتراعِ، والسَّهم هو ما يضرب به، وهو القدحُ الَّذي يقترعونَ بهِ، ويرد بمعنى النَّصيب، كان يقال: هذا سهمُك من المال، أي: نصيبُك، وللسّين والهاء والميم أصلٌ في لغة العرب يدلُّ على الحظِّ والنَّصيب، وعلى شيء معيَّن مِنَ الأشياء، والسَّهم في أصل وضعه عودٌ خشبيٌّ يُرمى به عن القوسِ، لكنَّهم استعملوه في المقارعة والميسر، فأصبحَ ينصرف الذِّهن إلى هذا المعنى عند إطلاقهِ[5]، ومعنى ﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: إنَّ نبيَّ اللّه يونس ﷺ قد قارعهم، فأجروا القرعةَ، واستهموا، فوقعت القرعةُ عليه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فلك).
(2) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 378.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شحن).
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 256.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سهم).
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 519.

5) ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾: اسمُ مفعولٍ مجموع جمع مذكر سالمًا، الجذر اللُّغويُّ منه (دحض)، ومعنى الدَّحض هو الزَّلق، وهو الماءُ الذي تحصل منه المزلقة، وكلُّ موضعٍ لا تثبت فيه قدم الإنسان؛ فهو مدحضٌ، ويجوز استعمالُهُ في إبطال الحُجَّة بقولهم: دحضت حجَّته، ويُعبَّر به عن زوال الشَّمس عن كبد السَّماء بقولهم: دحضتُ الشَّمس، والدّال والحاء والضّاد يدلُّ أصلُهُ على زوالٍ، وزلقٍ، فهو يعمُّ المعاني جميعها، والدَّحض ما كان يزيل معه الأقدام، والدَّحض انزلاقُ كتلةِ الجسم كلِّها لزلق مقرِّها وانحدارها، والدَّحض يكون مادّيًّا ومعنويًّا، والوارد مِن قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾، "الأنسب تفسيرها بالإدحاضِ المادّيِّ، أي: إزلاقه في البحرِ"[1]، غير أنَّ عامَّة المفسِّرين كان رأيهم أنَّ يونس ﷺ لَمّا قارعَ أهل السَّفينة، وساهمهم، ووقعت القرعةُ عليه؛ كان مِن المغلوبين المقروعين بذهاب حُجَّتهم[2]، فكان مصيرُهُ الإلقاءَ في البحر.

6) ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾: فعلٌ مزيدٌ على زنةِ (افتعلَ)، والجذرُ اللُّغويُّ منه (لقم)، ومنه اللُّقمة، وهي أكلُ الشَّيء بمرَّةٍ واحدة، ومن معانيه ما يهيِّئه المرء؛ كي يلتقمَهُ، ومنه لقم الرَّجل؛ إذا أكل، وألقمتهُ؛ إذا سدَّدت فمه، والتقام اللُّقمة بلعُها[3]، و"اللّام والقاف والميم أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على تناول طعام باليد للفم، ثمَّ يُقاس عليه"، واللُّقم أن يبادرَ إلى الأكل، ويسرعَ إليه، ومنه لقمتُ البعيرَ؛ إذا ناولته بيدك الطَّعام؛ إذا لم يأكل[4]، ومعنى ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾ في الآية، أي: ابتلعَهُ الحوتُ[5].

7) ﴿ٱلۡحُوتُ﴾: اسم ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، جذره اللُّغويُّ من (حوت)، وهو معروفٌ، ومعناه السَّمك، أو هو ما كان عظيمًا من السَّمك، والحاء والواو والتّاء أصلٌ عربيٌّ صحيح ينقاس يدلُّ على الاضطراب والرَّوغان، وهذا شأنُ السَّمك العظيم في الماء، ومنه قولهم: حاوتَني فلانٌ؛ إذا كان منه مراوغةٌ شديدة تشبهُ مراوغةَ الحوتِ، والحوتُ ما كان ذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دحض).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 19/ 106، والجرجاني، درج الدّرر: 3/ 957، والنّيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 704.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (لقم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 626.

جرمٍ عظيم مستديرٍ مشهور باللَّقم[1]، ومعنى ﴿ٱلۡحُوتُ﴾ في الآية هو عينُ ما ورد عند اللُّغويّين، وهو السَّمكة[2].

8) ﴿مُلِيمٌ﴾: اسم فاعل، وهو وصفٌ لنبيِّ اللّه يونس ﷺ جذره اللُّغويُّ (لوم)، ومنه الملامةُ، وهي معروفةٌ، ورجل مُليمٌ؛ إذا كان مستحقًّا للَّوم، ومن معاني اللّوم العذلُ، وللام والواو والميم دلالتان: إحداهُما بمعنى العتبِ والعذل، ومن كان مُليمًا؛ فهو في عداد المذنبين، و"اللَّومُ: عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لومٌ"، ومَن أتى بذنبٍ يُلام عليه؛ سُمّي مليمًا، ويُعبَّر عن معنى اللَّوم بأنَّه تعنيفٌ مستعملٌ في الرَّدع عن التَّجاوز، وكلُّ ما في القرآن من اللَّوم واشتقاقاته؛ فهو مِنَ العذل[3]، ومعنى ﴿مُلِيمٌ﴾ في الآية: "الَّذي قد اكتسب اللَّوم، وإن لَمْ يُلم، والملوم الَّذي قد ليم باللِّسان"[4].

9) ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مِنَ الفعل المضعَّف (سبَّحَ)، مجموعٌ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا، والجذرُ اللُّغوي منه (سبح)، ومعنى التَّسبيح تنزيهُ الحقِّ ﷻ عن كلِّ ما لا يليقُ بهِ مِنَ الأوصاف، ومِنَ السّين والباء والحاء يكون التَّسبيح، "وهو تنزيهُ اللّه جلَّ ثناؤه من كلِّ سوء، والتَّنزيه: التَّبعيد، والعرب تقول: سبحان مِن كذا، أي: ما أبعدَه!"[5]، ويرد أيضًا بمعنى التَّعظيم والتَّمجيد بالصَّلاة، والذِّكر للّه تعالى[6]، وقد جعل التَّسبيح أمرًا عامًّا شاملًا في جميع العبادات مِن باب القول أو الفعل أو النِّيَّة[7]، ووصف ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ في الآية دالٌّ على معنى "الذّاكرين اللّه بالتَّسبيح والإنابة والتَّوبة، في بطن الحوتِ"[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ يونسَ بنَ متّى ذلك النَّبي الصّابر المخلص، قد أُرسل إلى قوم نينوى العصاة، فحمل رسالة ربِّه إليهم صابرًا محتسبًا، وأثناء هذه المهمَّة الشّاقَّة غلبه اليأسُ، ففرَّ هاربًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حوت).
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 313.
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لوم).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 393.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبح).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبح).
(8) القاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 227.

محتميًا بظلمات البحر في سفينةٍ، ليكتشفَ حينها أنَّ الهروبَ من قدر الله أمرٌ مستحيل؛ فقد ألقته القرعةُ في البحر؛ ليبتلعَهُ الحوت، ليعيشَ في ظلمات بطنه تجربة فريدة مِن العذاب والنَّدم، ليكون عبرةً لكلِّ من يفكِّر في التَّخلّي عن رسالتِهِ، فكان مأمورًا بالصَّبر على ما كان من قومهِ مِن أذًى أسوة بأولي العزم، فلولا أنَّه كان من الذّاكرين والمسبِّحين بحمده للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون[1].

من نينوى إلى بطنِ الحوتِ ورحلة يونس بين اليأس والأمل والاعتبار

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ عطفِ ذِكر يونس ﷺ على من تقدَّمه من الأنبياء:

في عطف قصَّة نبيِّ الله يونس ﷺ على مَن تقدَّمه مِن قصص الأنبياء السّابقين مع أقوامِهم تغليبٌ للتَّرجية على التَّأسية والتَّعزية لما كان من شأن من سبق من أمور مَن كان على أيديهم الهلاكُ الدُّنيويُّ، أو الأخرويُّ مع الأنبياء السّابقين، فيما آل أمرُ قوم يونس إلى السَّلامة والإيمان والنِّعمة والإحسان[2].

تغليبُ التَّرجية في قوم يونس على التَّأسية والتَّعزية فيما كان من الأقوام الَّذين سبقوه

وفي عطف هذه القصَّة على ما سبقها، وجعلها خاتمةً لقصص الأنبياء؛ لتكونَ عظةً وعِبرةً لمن بعده، لا سيَّما نبيُّه المصطفى ﷺ ليعلم أنَّ الصَّبر على أذى القومِ هو السَّبيل إلى النَّجاة، وأنَّ العجلة والهروب قد يقودان إلى مصائبَ أكبر، ففي قصَّة يونس ﷺ عبرةٌ لكلِّ مَن يواجه بلاءً أو امتحانًا، يدعوه إلى الصَّبر والتَّسليم لقضاء الله[3].

ومن الأغراضِ المهمَّة في ذكر قصَّة يونس ﷺ، وعطفها على ما سبقها التَّحذيرُ مِن أن يقعَ الرَّسول فيما وقع فيه يونس مِن غضبِ اللهِ تعالى، وفيه إعلامٌ بأنَّ الحقَّ تعالى إذا اصطفى أحدًا مِن خَلْقِهِ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 258.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 356.

للرِّسالة؛ فإنَّه لا يرخِّص له في الفتور عنها، فإنَّه تعالى أعلمُ حيث يجعل رسالته[1].

نكتةُ تتابُعِ المؤكِّدات في الآية:

الإقرارُ برسالته على الرَّغم ممّا كان مِن إباقِهِ مِن قومِهِ بغيرِ إذنِ ربِّه ومولاه

أورد أكثر من مؤكِّدٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ دفعًا لما سيأتي مِن ذِكرِ إباقِهِ، وبما أوهم شيئًا في أمره[2]، فلعلَّ ظانًّا يظنُّ غير ما ينبغي أن يكونَ مِن أمرِ رسالتِهِ بموجب ما بدر منه مِن هروب وترك الدَّعوة من دون إذنِ ربِّهِ.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَمِنَ﴾:

توكيدُ نبوَّة يونس عليه السلام في مَن ظنَّ غير ذلك بمدعاة إباقه

اللّامُ الدّاخلة على حرف الجرِّ هي اللّام المزحلقة[3] الَّتي تفيد توكيد نبوَّة يونس عليه السلام في مواجهة مَن ظنَّ انتفاء الرِّسالة عنه بما صدر منه من أبَقِه وهروبه بما لم يؤمر من ربِّ العزَّة ﷻ.

معنى (مِنْ) ودلالتها:

من معاني حرفِ الجرِّ (مِنْ) التَّبعيض[4]، وهو المعنى المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهو وصفٌ لنبيِّ الله يونس عليه السلام فهو داخلٌ في زمرة الأنبياء المرسلين إلى أقوامِهم[5].

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

إيثارُ (ال) العهديَّة للدَّلالة على إرسال يونس لقصد الإنذار والإعذار

(ال) في قولِهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دالَّةٌ على العهدِ، لتؤكِّد انتماء النَّبيِّ يونس عليه السلام إلى صفوةِ الأنبياءِ والمرسلين إلى أقوامِهم بالإنذار والإعذار[6]، الذين كُلِّفوا بمهمَّة سامية، وهي تبليغُ رسالة الله تعالى إلى قومهم، ودعوتهم إلى الإيمانِ والهدايةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 178.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(3) الدعّاس، إعراب القرآن: 3/ 115.
(4) المرادي، الجنى الدانيّ، ص: 309.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 106.
(6) مكّي القيسي، الهداية: 9/ 6160.

موقعُ قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ ودلالته:

يونس عليه السلام من المرسلين حتّى في حالة كونهِ آبقًا

قولهُ تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ ظرفٌ لقولهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، والمعنى: أنَّ نبيَّ اللّه يونس عليه السلام من المرسلين حتّى وهو على هذهِ الحالةِ من الإباق[1]، فالنُّبوَّة صفةٌ ملازمة له لا تفارقه، وفي ذلك عِبرةٌ لكلِّ نبيٍّ ورسول، فمهما واجهوا مِن مصاعبَ وتحدّيات، فإنَّهم يظلّون ثابتين على دعوتهم.

واذكـرْ لهـم يا محمَّـد يونـس حـين أبـق إلى الفلك المشحون

ويجوزُ أن يكونَ فصل قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه لا يتعلَّق به، بل هو متعلِّق بمحذوفٍ، تقديره: واذكرْ لهم يا محمَّد إذ أبق نبيُّ اللّه يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون، وما كان مِن شأنه وقصَّته[2].

معنى ﴿إِذْ﴾ ودلالتها:

ظرفٌ وقّت فيه رسالته بالزَّمن الَّـذي أبـقَ فيه إلى الـفـلـك المشحون

معنى ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ الظَّرفيَّة المتعلِّقة بإرساله من ربِّ العزَّة إلى قومه، ففيه توقيتُ رسالتِهِ بما كان منهُ مِن هروبٍ إلى الفُلك المشحون، فإنَّ فِعلَهُ ذاك كان حاصلًا عندما أمره الحقُّ سبحانه بدعوةِ قومهِ مِن أهل نينوى لإبلاغ بني إسرائيلَ بما كان مِن غضبِ اللّه عليهم لانحرافِهم عن شريعتِهِ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَبَقَ﴾ مادَّة وصيغة:

لَمّـا كـان هـروبُـهُ مـن قـومِـهِ بغير إذنِ ربِّه؛ حسُنَ الـتَّـعـبـير بمن هرب من سيِّده

عبَّر عن فرارهِ مِن قومهِ بالإباق بقولهِ تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ بمعنى هربَ، والأصلُ في الإباق أن يدلَّ على هروبِ العبدِ من سيِّده[4] غير أنَّه لَمّا كان خروجه من القوم الذين أرسل إليهم قبل أن يأتيه إذنٌ من ربِّه الذي أرسله؛ فجاءه العتابُ، وحسنَ التَّعبيرُ بفعل الإباق[5]،

(1) ابن عادل، اللّباب: 16/ 344.
(2) الرّازي، أنموذج جليل، ص: 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 172.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أبق).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 587، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 485.

وزاد على ذلك أن استعملَ صيغة الماضي الدّالَّة على التَّوكيد المؤذنة بتحقُّق الذَّنب والمؤاخذة بمدعاة ترك طاعة ربِّه.

والتَّعبيرُ بفعل الإباقِ وصفًا لما كان مِن أمرِ نبيِّ اللّه يونس عليه السلام فيه إشارةٌ إلى صعوبة أمر الرِّسالة، وشدَّة خَطْبِها، وثقلِ أمرِها حتّى يجعل النَّبيَّ يفرُّ من قومِهِ على شدَّة عنايته سبحانه في اختيار الرُّسل عن علمٍ، ففي ذِكر أبق يونس وما جرى معه تسليةٌ للرَّسول ﷺ على ما كان من قومِهِ في استكبارِهم عن كلمة التَّوحيد، ورميه بأنَّه شاعرٌ مجنون[1].

نكتةُ تعدية الفعل ﴿أَبَقَ﴾ بـ﴿إِلَى﴾:

الـهـروبُ من السَّيِّد إلى الفُلك إذ يـظـنُّ أنَّـه يخفى عليه

لّما كان الأبقُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ دالًّا على هروبِ يونس عليه السلام من سيِّدِه الَّذي شرَّفه بحمل الرِّسالة بعد أن ضعفَ عن حمل لأوائِها؛ جعل تعديتَهُ بالحرف ﴿إِلَى﴾؛ لأنَّ الأبقَ هروبٌ مِنَ السَّيِّد إلى المكان الَّذي يظنُّ أنَّه يخفى عليه[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَبَقَ﴾:

تشبيهُ التَّولّي عن بلد التَّكليف بأبق العبد من سيِّده الَّذي كلَّفه عملًا

التَّعبيرُ بالأبق في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مِن باب المجاز[3]؛ إذ شبَّه حالة نبي اللّه يونس عليه السلام في خروجِهِ مِن البلد الَّذي كُلِّف فيه بدعوة قومِهِ، فهو استعارة تمثيليَّة؛ شبَّه ذلك بخروج العبدِ من سيِّده الذي كلَّفه بعمل ما، وكأنَّه قد تخلَّف عن طاعة ربِّه، وتنصَّل من مهمَّته[4]، وهذا التَّشبيه البليغُ يبرز معاناة النَّبيِّ يونس عليه السلام ووحشته من قومِهِ، وكيف كان وحيدًا في دعوته، حتّى خرجَ منهم، وهربَ من البلد الَّذي أوحي إليه فيه.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 291.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 291.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 61.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173، والقونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 316.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾:

عـنـدما غـضـبَ يـونـس، وركـب الـبـحـر هـربًـا اصطفتْهُ سفينةٌ مـعـيَّـنـة مع مـجـمـوعـة من النّاس

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ عهديَّةٌ، فإنَّه لَمّا عوقبَ قومُ يونس بالعذاب حتّى أيقنوا بقدرة الله، ثمَّ رُفع عنهم العقاب، عندها غضب يونسُ، وركب البحرَ هربًا؛ فاصطفتْهُ سفينةٌ معيَّنة مع مجموعة من النّاس[1]، وكان مِن أمره ما كان في استهامِهم وإلقائه في اليمِّ.

سرُّ وصفِ الفلك بأنَّه ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾:

قـيـدُ المشحون يناسبُ ما كان مـن يـونـس مع قـومِـهِ؛ إذ كان صـــدرُهُ مليئًا بالحنق عليهم

وُصِفَ الفُلك بالمشحون في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، ومعنى المشحون، أي: السَّفينة المملوءة بالرّاكبين[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تقدير الله تعالى، ففي حين كان الفُلك مزدحمًا بالكثير من النُّفوس، إلّا أنَّ القدرةَ الإلهيَّة على التَّدبير والتَّقدير وقع السَّهم على يونس ﷺ من دون غيرِهِ ممَّن امتلأ بهم الفُلك ليُلقى في اليمِّ، فيلتقمُهُ الحوت، ثمَّ ما كان من بقيَّة أمره.

وفي اختيار لفظ ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ نكتةٌ بليغةٌ متعلِّقة بما كان مِن أمرِ يونس ﷺ في إباقِهِ مِن قومِهِ، فإنَّه لَمّا خرج منهم؛ "كان فعلُهُ على صورة فعلِ المشاحن، وكان قصدُهُ الإيغالَ في البُعد، والإسراع في النَّقلة... فلا سَعة فيه لشيءٍ آخر يكون فيه، فليس لأهلِهِ حاجةٌ في الإقامة لحظة واحدة لانتظار شيءٍ مِنَ الأشياء"[3]، فاختيرَ لفظ ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، أي: المملوءُ تناسبًا مع ما كان مِن فعل يونس مع قومِهِ، فكان صدرُهُ مليئًا بالحنق عليهم، مشحونًا بالغضب منهم، لا يسعه شيءٌ غير ذلك.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ تفريعيَّة؛ لإفادةِ تعليل ما

(1) بكر بن العلاء، أحكام القرآن: 2/ 342.
(2) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 3/ 977.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.

سبقها مِن كلام، وهذا الكلامُ مؤذنٌ بجمل محذوفة على تقدير: فهاجَ البحرُ، وخاف الرّاكبون الغرق، فكان نتيجة ذلك أن استهموا في قُرعةٍ لمعرفة سبب تلك البليَّة بحسب اعتقادهم، فكانوا كلَّما اقترعوا؛ وقعت على يونس ﷺ، وكان الاقتراع سُنَّةً في الأقدمين في أسفارهم في البحر عند ثقل السَّفينة براكبيها، أو ثقل متاعها[1].

الفاءُ تفريعيَّةٌ مؤذنةٌ بجمل محذوفةٍ، على تقدير فهاج البحر، وخاف الرّاكبون الغرق، فساهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ساهم) مادَّة وصيغة:

لمّا كان مِن أعرافِهم وتقاليدهم في أسفارهم البحريَّة الاقتراعُ؛ إذا ألجأهم البحرُ، واضطرب بهم، وأنَّ السَّفينة لا يستقرُّ حالها، ولا يستقيم أمرها، وتكاد تغرق؛ إذا كان قد ركب فيها عبدٌ مذنب ذنبًا عظيمًا[2]؛ لذلك قال عنهم الحقُّ سبحانه: ﴿فَسَاهَمَ﴾، ومعناه قارع، وهو مشتقٌّ أصلًا مِن لفظ السَّهم، فإنَّهم كانوا يقترعون بأعواد النِّبال المسمّاة سهامًا، وقد ذكرها القرآنُ بلفظ الأزلام في موضع آخر[3]، وقد أخبرَ هنا بصيغة (فاعَلَ) الَّتي تقتضي المشاركةَ والمفاعلة بأن يكونَ الفعلُ بين اثنين فأكثر[4]، فإنَّ الاقتراعَ كائنٌ بين ركّاب السَّفينة جميعهم، ثمَّ ما كان من تدبيرِهِ تعالى بأن وقعَ الاختيارُ على يونس مِن بينهم.

دلالةُ الفعلِ على عادة الاقتراع بالسِّهام بين ركّاب السَّفينة كلِّهم

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَكَانَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ مؤذنةٌ بالسَّببيَّة عن المساهمة[5]، فإنَّه لمّا اضطرب البحر بهم، وأوشكتِ السَّفينة على الغرق؛ كان مِن عاداتِهم المساهمة لتخفيف حملها، فكونُهُ من المدحضين نتيجةٌ لما كان مِنَ الاقتراع والمساهمة الجارية وفق عاداتهم.

دلالةُ الفاءِ مؤذنةٌ بالسَّببيَّة عن المساهمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173.
(4) الرضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 101.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.

ويجوزُ أن يكونَ حرف الفاء من ﴿فَكَانَ﴾ دالًّا على العطف؛ لتكونَ جملة كونه من المدحضين معطوفةً على جملةِ كونِه مِن المساهمين في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾[1]، أي: ربط جملة الدَّحض بجملةِ الاستهامِ والاقتراع، فبعد أن ساهم يونس في القرعة، جاءت النَّتيجة الحتميَّة، فكان مِنَ المدحضين؛ لتُبين لنا تسلسل الأحداث وترابطها، ففي التَّعبير ترتيبٌ ومباشرة[2]، ترتيبُ كونهِ مِنَ المدحضين على استهامِهم واقتراعِهم، ووقوع القُرعة عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: (كان):

تعبيرُ الفعل يؤكِّد حتميَّة النَّتيجة وهو انـدحاضه في البحر والتقام الحوت إيّاه

فعلُ الكونِ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لم يأتِ بدعًا، بل هو تعبير يؤكِّد حتميَّة وقوع النَّتيجة، وكأنَّ الكون قد انقلب على يونس، فبعد أن ساهم لم يعد أمامَهُ سوى أن يكونَ من المدحضين، وأن يلتقمَهُ الحوت إظهارًا لقدرة الله تعالى على تدبيرِ الأمور، وحتميَّة وقوع الأقدار.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

يونس عليه السلام كان مِن هؤلاء المدحضين المغلوبين في القرعة

معنى حرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لإفادة البعضيَّة، أي: إنَّ يونس عليه السلام كان من جملةِ هؤلاء المدحضين، أي: المغلوبين في القرعة[3]، ولكنَّه كان المنتصر حقًّا؛ إذ خرجَ من هذه المحنة منتصرًا، ففي تلك اللَّحظات العصيبة تجلّى صبرُ النَّبيِّ وتسليمه لقضاء الله وقدره.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

إفادةُ العهدِ الذِّهني دالَّةٌ على أهل السَّفينة حينما اقترعوا

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ تعريفٌ لإفادة العهد الذِّهني، فإنَّه وصْفٌ لمن كان في السَّفينة عندما طفقوا يقترعون، فمَن أصابتْهُ

(1) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1049.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 197.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 205.

القرعة؛ كان مدحضًا، فرموهُ في البحر، وهو ما كان مِن أمر يونس ﷺ الذي وقعت القُرعة عليه غير مرَّةٍ واحدة في لحظة حاسمة حيث تقاطعت إرادة السَّماء بإرادة البشر، فكان مِنَ المقروعين أو المسهومين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

زلقةُ يونس وسقوطُهُ مِن مكان عالٍ في السَّفينة إلى مكان سافل في سحيق البحر

دلالةُ التَّعبير بالمدحضين في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ أنَّه "لمّا آل وقوعُ القرعة عليه إلى رميه من السَّفينة من محلٍّ علو إلى أسفل؛ عبَّر عن ذلك بما يدلُّ على الزَّلق الذي يكون من علوٍّ إلى سفل"[2]، فما أبدع هذا الاختيارَ! فلفظُ الدَّحض يدلُّ على الزَّلقة والسُّقوط من مكان عالٍ إلى مكان سافل، تمامًا كما وقع النَّبيُّ يونس ﷺ من علوِّ السَّفينة إلى سحيق البحر، واستعملَ صيغةَ المفعول الواقع عليه الفعل، وهو المدحضُ[3].

بلاغةُ التَّعبير بالاستعارة في ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾:

دلالةُ الاستعارة على أنَّ يونس كان مغلوبًا على أمره

استُعمِلَ لفظُ الإدحاض في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ وصفًا لما كان مِن أمرِ نبيِّ اللّه يونس ﷺ، "والإدحاضُ: جعلُ المرء داحضًا، أي: زالقًا غيرَ ثابت الرِّجلين، وهو هنا استعارةٌ للخسران والمغلوبيَّة"[4]، فهذا كان حال يونس ﷺ بعد أن عصى أمرَ ربِّهِ، فأُلقي في البحر، فوُصِفَ بأنَّه مِنَ المدحضين، أي: مِنَ الخاسرين والمغلوبين، وهذا الوصف يدلُّ على أنَّ العصيان والبُعد عن طاعة اللّه يؤدّي إلى الخسارة والفشل، وإن كان العاصي نبيًّا.

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾:

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾، الفاء هنا عاطفةٌ؛ إذ عطفت فِعلَ الالتقام على كلام محذوفٍ تقديرهُ ما مرَّ مِن فعل الإلقاءِ في البحر[5].

(1) ابن سلام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 843.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 317.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 311.

دلالةُ التَّعبير بـ(التقمه) مادَّة وصيغةً:

دلالـةُ الالتقام عـلى عـظـمـة الحوت

الالتقامُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ واردٌ بمعنى البلعِ، فإنَّ الحوتَ الَّذي التقم نبيَّ الله يونسَ حوتٌ عظيم كبير يبتلع فرائسَهُ من غير أن يعضَّ بأسنانِهِ[1]، فقد ابتلعَ الحوتُ نبيَّ الله ﷺ من غير أن يؤذيَهُ إشارة إلى تدبيره تعالى، والتَّعبيرُ بصيغة الافتعال (التقمه) (افتعله) دالٌّ على المبالغة[2]؛ للإشارة إلى قدرةِ اللهِ تعالى وعظمته؛ ولتكونَ قصَّته ﷺ درسًا لما بعده مِنَ الأجيال في وجوب الصَّبر على أعباء الدَّعوة ومشاقِّها.

دلالـةُ الالتقامِ عـلى الابـتـلاع دفعة واحدة

وقد ورد في الآثار التَّفسيريَّة أنَّ الحقَّ ﷻ لَمّا قدَّر على نبيِّه يونس ﷺ الإلقاءَ في البحر؛ أوحى إلى الحوت ألّا تخدش له لحمًا، ولا تكسر له عظمًا، وألّا تصيبَهُ بأيِّ سوء حتمًا[3]، فمِن هذا يُفهم سرُّ التَّعبير بالالتقام، فهو مشتقٌّ من اللُّقمة في الابتلاع، أي: التقمه دفعة واحدة[4]، ولا يخفى أنَّ الابتلاع على هذه الطَّريقة يتناسب مع وحيه تعالى للحوت بألّا يمسَّه بسوء عند ابتلاعه.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡحُوتُ﴾:

دلالـةُ (ال) على حـوت مـعـروف مـرصـود لـهـذا الغرض عظيم

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُوتُ﴾ عهديَّةٌ، فإنَّ الحوت المعنيَّ هو حوت معروف من ناحية أنَّه لا حوت أعظم منه حجمًا، وكأنَّه لا حوت غيره[5]، وهو رمزٌ للقوَّة والعمق والظُّلمات التي ابتلع فيها يونس ﷺ، وكأنَّه يقول: إنَّ هذا الحوتَ ليس كأيِّ حوت، بل هو "حوتٌ مرصود لهذه الغاية، وأنَّه مسوق بقدرة الله إلى تلك المهمة، وهي ابتلاعُ يونس"[6]؛ لتبرزَ بذلك عظمةُ البلاء الذي وقع على نبيِّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 4/ 538.
(3) الجرجاني، درج الدّرر: 3/ 958.
(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 317.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 292.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1028.

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ودلالته:

دلالةُ صيغة اللَّوم على حال من التقمَهُ الحوتُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ دالَّةٌ على الحال[1]، وما بعد الواوِ جملة اسميَّة من المبتدأ والخبر واقعة موقع الحال في محلِّ نصب[2]، والمعنى أنَّ الحوتَ قد التقمَهُ حالةَ كونِهِ مليمًا نفسَهُ، أو ملامًا مِن غيرِهِ تأسيسًا على ما في معنى المليم من كونِهِ لومَ المرء نفسَهُ، أو أن يلامَ مِن غيرِهِ، استحقَّ اللَّوم، أم لم يستحقَّ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مُلِيمٌ﴾ مادَّة وصيغة:

توصِفُ من اكتسب اللَّوم وإن لم يحصل له لومٌ مِن غيره

قوله: ﴿مُلِيمٌ﴾ صيغةٌ صرفيَّة دالَّة على اسم الفاعل، والفعل منه ألأم مِنَ اللَّوم إذا كان منه فعلٌ يلومه النّاس عليه، فلمّا جعلَهم لائمين له؛ صار ألأمَهم على نفسه[3].

ويجوز أن يكونَ معنى قولِهِ تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وصفًا لمن اكتسب اللَّوم، وإن لم يحصلْ له لومٌ مِن غيرِهِ، واللَّوم يحصل باللِّسان عادة[4]، ولعلَّه كان يلوم نفسَهُ على ما كان منهُ مِن خروج من غيرِ إذنٍ من ربِّه ومولاه[5].

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾:

تعليقُ النَّجاة بالتَّسبيح والتَّوبة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ عاطفة تفيد السببيَّة؛ لأنَّ نبيَّ اللهِ يونسَ عليه السلام لَمّا كان مِنَ المسبِّحين التّائبين بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء 87]؛ كان ذلك التَّسبيح، وتلك التَّوبة سببًا في نجاته ممّا كان فيه من شدَّة وضيق وكرب[6].

(1) السّمين، الدرّ المصون: 9/ 330.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 312.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 393.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 588.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 177.

ويجوز أن تكونَ الفاءُ من قولهِ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ استئنافيَّةً لإفادة التَّعليل[1]، أي: تعليلُ سببِ انتفاء بقاءِ يونسَ في بطن الحوتِ إلى يوم القيامة، فإنَّ التَّسبيحَ هو السَّببُ في نجاته، وكأنَّ الحقَّ تعالى يذكِّرنا بأنَّ التَّسبيح هو مفتاح النَّجاة في كلِّ شدَّة.

معنى (لولا) ودلالتها:

الأصلُ في (لولا) في كلام العرب أنَّها حرفُ امتناعٍ لوجود، والممتنعُ معها هو الثّاني[2]، وهي الواردةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، فامتنع اللَّبثُ لوجود التَّسبيح.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ تقتضي جوابًا ممتنعًا، وجوابها قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وقد صدَّرها بحرف الشَّرط غير الجازم (لولا)[3]، ومن خصائصه أنَّه إذا وجد الشَّرط؛ امتنع الجواب، والشَّرط كونه ﷺ قائمًا على التَّسبيح والصَّلاة مداومًا عليهما، فلمّا كان ذلك كذلك؛ امتنع الثّاني، وهو جوابها، وهو، أي: لمكث في بطن الحوتِ إلى اليوم الموعودِ، أو لصار بطنُ الحوت له قبرًا حتّى يوم البعث الأكبر[4]، وهو ما امتنع حصولُهُ، فأنجاه الله تعالى بما كان مِن كَثرة صلاته وتسبيحه[5].

وجـودُ الـشَّـرط (التَّسبيح)؛ مَنَعَ الـجـواب، وهـو لـبـثُـهُ في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون

دلالةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾:

فعلُ الكون في قولهِ تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ دالٌّ على الصَّيرورة، أي: صار من المسبِّحين[6]، فهنا وصفٌ لعمليَّة تحوُّلٍ وتطوُّرٍ حدثَت ليونسَ ﷺ، فالتَّسبيح هنا ليس مجرَّد فعلٍ عابرٍ، بل

سـوقُ التَّسبيح طمعًا في رحمة اللهِ والنَّجاة من الكربةِ

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 10/ 63.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 346.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 10/ 63.
(4) الثّعلبي، الكشف والبيان: 22/ 427.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 553.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 588.

هو حالةٌ روحيَّة وصل إليها يونس نتيجةً لما كان مِن أمرهِ في بطن الحوت، وطمعًا في رحمة ربِّه، ونجاته من كربه.

ويجوز أن يكونَ معنى فعل الكونِ في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ دالًّا على المضيِّ حقيقةً، كما هو شأنُه في لسان العرب[1]، أي: إنَّه كان مِن المصلّين قبل البلاءِ والعقوبةِ، ولولا ذلك؛ لظلَّ سجينًا في ظلمات البحرِ إلى يوم البعث الأكبرِ[2]، يئنُّ وحيدًا، ولا ذاق طعم الحرّيَّة قط، فالصَّلاة كانت نورًا وهدًى أخرجَتْهُ مِن ظلمات الضَّلال إلى نور اليقين.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

سـوقُ مـا يـدلُّ عـلـى فـطـرة التَّسبيح ابتداءً، وليس التَّسبيحُ أمرًا طارئًا عليه

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ابتدائيَّةٌ[3]، أي: إنَّ يونس عليه السلام من المسبِّحين المداومين على التَّسبيح من أوَّل أمره، وليس التَّسبيح طارئًا عليه، يؤيِّد ذلك أنَّ الحقَّ سبحانه أنجاه من محنتهِ، وأنَّه لمّا كان وافرَ الذِّكر في حال رخائِهِ؛ ذكره المولى سبحانه في وقت شدَّتِهِ، فأنجاه مِن محنته، وأخرجه سالمًا مِن أزمته[4].

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

كـلُّ مَـن كـان التَّسبيح ديدنَهُ وخـصـلـتـه أنجيناه من كربه ومحنته

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ لاستغراق الجنس، فليس التَّسبيح مقصورًا على وقتٍ أو مكان أو شخص معيَّن، بل هو حالةٌ قلبيَّةٌ مستمرَّةٌ، ومِن هنا جاءت الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ مَن لجأ إلى التَّسبيح في محنتِهِ؛ وجد فيه النَّجاة والخلاص، وكأنَّ الحقَّ تعالى يقول لنا: إنَّ التَّسبيح هو المفتاحُ الذي يفتح أبوابَ رحمتهِ، وينجي العبدَ مِن محنتِهِ.

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 3/ 1184.
(2) مكيّ القيسيّ، الهداية: 9/ 6161.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 199.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 294.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

تعليلُ الإنجاءِ بالتَّسبيح والدَّوام عليه

عبَّر عن حالة نبيِّ الله يونس ﷺ والَّتي أنجته ممّا هو فيه من الكربِ داخلِ بطنِ الحوتِ بقولهِ تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾، أي: إنَّهُ كان مِن الَّذين يذكرون الله كثيرًا تسبيحًا وتقديسًا مدَّة عمره[1]، والتَّعبيرُ بالصّيغة الاسميَّة دالٌّ على الدَّوام والاستمرار والثُّبوت، فلا يُنعت شخص بهذه الصِّفة ما لم يكن دائمَ التَّسبيح لله تعالى؛ فإنَّها صفةٌ دالَّة على كثرة الممارسة[2]، فقد كان لا ينقطع عن ذكرِ الله وتسبيحه، وكان ذِكرُه لله كالنَّهر المتدفِّق، وكان قلبُه روضةً مزدانةً بذكرِ اللهِ.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَلَبِثَ﴾:

لولا التَّسبيحُ الدّائم؛ لصارَ بطنُ الحوتِ قبرًا ليونس ﷺ إلى يوم القيامة

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ واقعةٌ في جواب (لولا)[3]، فلولا أنَّ لسانَ نبيِّ الله يونس لم ينفكَّ عن ذكرِ الله وتسبيحهِ في أعماق الظُّلمات؛ لصارَ بطنُ الحوت مهجرَهُ الأبديَّ، وقبرَهُ السَّرمديَّ إلى يوم القيامة[4]، ففي تلكَ المحنةِ العظيمةِ كان الذِّكرُ نبراسَهُ الَّذي هداه إلى بَرِّ الأمان، وليكون عِبرةً لكلِّ مؤمنٍ، فإنَّ الصَّبر والذِّكر هما السِّلاحان الأقوى في مواجهة الشَّدائد.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (لبث):

القصدُ إلى تحقيق معنى الإقامةِ مع الحياة

معنى اللَّبث الوارد في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ هو البقاءُ حيًّا في بطن الحوت إلى يوم القيامةِ، أو أن يكونَ بطنُ الحوت له قبرًا حتّى يوم البعث الأكبر[5]، والأوَّل أنسبُ لما في معنى اللَّبث مِنَ الإقامة مع الحياة[6]، فإنَّ الموت لا يُسمّى لبثًا.

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 515.
(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 318.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 82.
(4) ابن علّان، الفتوحات الربّانية: 1/ 175.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 62.
(6) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 319.

واللُّبث في معناه اللُّغويِّ عند العرب ما يكون مع الإقامة والبطء والتَّأخُّر كقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ [النبأ: 23]، أي: آمادًا طويلة، فاستعمالُهُ في قصَّة يونس ﷺ دالٌّ على بقائهِ مددًا طويلة في بطن الحوت ليس على سبيل الحقيقة إنَّما على سبيل الفرضِ، فإنَّه لولا تسبيحُهُ الَّذي أنجاه؛ لمكث طويلًا في بطن الحوتِ إلى يوم القيامة[1].

نكتةُ تعديةِ الفعل (لبث) بـ﴿إِلَىٰ﴾:

تحقيقُ مقصدِ المبالغةِ في طول مدة المكث

استُعمِل فعل اللَّبثِ متعدّيًا بـ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لإفادة المبالغة في تطاول المدَّة التي يكون فيها يونس ﷺ في ظلمات بطنِ الحوتِ إلى يوم البعثِ[2]، متأمِّلًا في قدرة خالقه، متضرِّعًا إلى رحمته، حتّى أخرجَهُ منه آية للنّاس، وطال به الأمدُ في ذلك الظَّلام حتّى كاد اليأسُ أن يغشاه، لولا أنَّ الله تعالى أظهرَ له رحمته الواسعة.

سرُّ ذِكرِ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾:

تخصيصُ بطنِ الحوت وعاء ليونس ﷺ

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانه أوحى إلى الحوتِ بعد أن التقمَ يونس: أنّي لم أجعل يونس ﷺ رزقًا لك، وإنَّما قد جعلتُ بطنَك له وعاءً[3].

علَّةُ تسميةِ يوم القيامة بـ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

تمثيلُ الغائبِ بالحاضر

تسميةُ يوم القيامة بيوم البعثِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بقصَّة نبيِّ الله يونس ﷺ، ففعلُ البعثِ يحمل في طيّاته معنى الخروج من الضّيق إلى السَّعة، ومن الظُّلمات إلى النّور، تمامًا كما خرج يونس من بطن الحوتِ إلى الحياة من جديدٍ، فإنَّ يوم القيامةِ هو اليوم الَّذي يُبعَثُ فيه جميعُ الخلق مِن قبورِهم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 627.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 139.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 125.

ليُحاسَبوا على أعمالِهم، وينتقلوا إلى دار الخلود، فهو تناسبٌ بديع، وتلاؤمٌ بليغ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُبْعَثُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

يومُ البعث ليس بعيدًا والدُّنيا استعداد له

التَّعبيرُ بفعل البعثِ في قوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ يقرب من كونِهِ نفحةَ حياةٍ تهبُّ على العبدِ، فمِن خلالها يتصوَّر عظمةَ اللّٰه وقدرته على إحياء الموتى، وتجديد الخلقِ كما كان مِن شأنِ يونس عليه السلام فصيغةُ المضارع هنا تجعلُ القارئ يشعر بأنَّ يوم البعثِ ليس حدثًا بعيدًا، بل هو واقعٌ قريب، وأنَّ الحياةَ الدُّنيا ما هي إلّا استعدادٌ لذلك اليوم العظيم، وتحثُّه على الاستعداد للموت والحساب، والتَّطلُّع إلى الحياة الآخرة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير المجموع في ﴿يُبْعَثُونَ﴾:

إيثارُ الجمعِ ليستغرقَ بالخطاب كلَّ دابَّةٍ

مع أنَّ الحقَّ ﷻ حكى لنا حال نبيِّهِ يونس عليه السلام مع الحوتِ إلّا أنَّه ذكرَ فعلَ البعثِ مسندًا إلى الضَّمير الدّالِّ على الجمع بقوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ﴾، فلم يفرد؛ درءًا لتوهُّم انتفاء بعْثِ الحيوانات العجم، ولو ثنّى؛ لظنَّ أنَّ البعثَ خاصٌّ بيونس وحوته، وأنَّ البعث لهما خاصَّة[1].

موقعُ جملةِ: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ ودلالته:

حَمْلُ اللَّبثِ في بطن الحوت على حال من الظَّلام والضّيق والوحشة

يقع قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ موقعَ الجوابِ للحرفِ (لولا) بدلالةِ اللّام المتَّصلة بفعل اللَّبث العائدِ ضميرُهُ على يونسَ عليه السلام، أمّا ﴿فِي بَطْنِهِۦٓ﴾؛ فهو جارٌّ ومجرور متعلِّق بفعل اللَّبث، ويجوز أن يكون متعلِّقًا بمحذوفٍ على تقدير الحاليَّة من ضمير الفاعل المستترِ، أي: لبث مستقرًّا في بطنهِ[2]، في ظلماتِ بطنِ الحوت يعاني من الظَّلام والضّيق والوحشة؛ ليتذوَّق طعمَ البلاء، ويتوب إلى ربِّهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 293.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 82.

دلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ التَّأبيد، وذلك بأن يميتَ الله تعالى الحوتَ الذي التقمَهُ، فيبقيا في قاع البحرِ إلى يوم القيامة، أو أن يحتجزَ الحوت بأمرِ الله في مكانٍ ما مِنَ البحر، فلا يطفو، ويبقى يونس هكذا لابثًا في بطنه إلى حين مبعثهِ يوم القيامةِ من قعر البحرِ[1].

تـأبـيـدُ الـبـقـاء بـمـوت الـحـوت أو احـتـجـازه في قـاع الـبحر حتّى الـبعث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 177.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»